متغيرات التعاون الاجتماعى ـ الاقتصادى
عند النوبة ـ المورو

محمد عبد الرحيم محمد صالح

يعود عدم انتشار المعرفة الواسعة بما يدور فى مجتمعات جبال النوبة بجنوب كردفان وأنماط حيواتها الاجتماعية والاقتصادية الى عدّة أسباب منها أنّ معظم ما كتب عن النوبة قد تمّ نشره باللّغة الانجليزية.(١) ويعتبر كتاب النوبة لمؤلفه نادل (١٩٤٧) من المراجع الهامّة فى دراسة مجتمعات النوبة وقد اهتمّ فيه نادل بالتغيير الاجتماعى فى الثلاثينات ممّا يجعل معلوماته قاصرة عن تعريف القرّاء بواقع الحال فى جبال النوبة اليوم، أمّا كتاب استيفنسن(١٩٨٣) عن النوبة والذى أصدرته كلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم فهو عبارة عن رسالة تقدّم بها لنيل درجة الماجستير فى علم الاجتماع عام ١٩٦٥ وقد استخدم فيه أدوات بحث لا تمثل التيارات الحديثة فى علم الاجتماع،كما أنّ المعلومات نفسها تعتبر تاريخية لبعد الشقة بين مجتمعات النوبة المعاصرة ومجتمعاتها فى خلال الستينات. وكتب أوسوالد آيتن (١٩٧٩) عن الضغوط الاقتصادية على مجتمعات النوبة التقليدية وأثر الزراعة الآلية والنظم الادارية الحديثة واقتصاديات السوق عليها إلاّ أنّه حذا حذو الكاتبين السابقين وركّز على تقليدية مجتمعات النوبة وتنبّأ بالضغوط الاقتصادية التى سوف تواجهها وما يتبع ذلك من رفض للتغيير الاجتماعى. أمّا معظم ما تمّت كتابته بالعربية فقد ركّز على النواحى التاريخية كدور النوبة فى منطقة قدير وتقلى فى إيواء ومساندة المهدى (١٨٨٢) أو مقاومة النوبة للحكم الثنائى الانجليزى المصرى (١٨٩٨-١٩٥٦) ممثلة فى ثورات فكى على الميراوى فى الجبال الجنوبية والسلطان عجبنا فى الجبال الشمالية، بالاضافة الى تمرّد قبائل تولوشى وتيرا الأخضر على المفتشين الانجليز. هذه الدراسات على أهمّيتها لا تعطى صورة واقعية لما يدور فى مجتمعات النوبة المعاصرة ولا التغيير الاقتصادى والاجتماعى الذى تشهده منطقة جبال النوبة فى الآونة الأخيرة.(٢)

انشغل عدد كبير من الكتاب والباحثين الأوربيين منذ العهد الاستعمارى وحتى السبعينات ، أى بعد الاستقلال، بدراسة مجتمعات النوبة كمجتمعات بدائية تمثل مرحلة متخلّفة من مراحل التطوّر البشرى . وبذلك لم تدوّن بأمانة وصدق مراحل التغيير الاقتصادى والاجتماعى الذى حدث . فعلى سبيل المثال ذكر سيلڤمان فى كتابه عن أعراق افريقيا (١٩٣٢) أنّ قبائل النوبة قبائل زنجية بدائية تعيش على سفوح الجبال فى منطقة تعرف باسمهم (أى جبال النوبة) ،وقسّمهم الى قبائل بانتو - سودانية وقبائل نوبية ذات صلة لغوية بالنوبيين فى شمال السودان. وذكر كذلك فى كتابه عن القبائل الوثنية فى السودان النيلى (١٩٣٢) أنّ النوبة ينتمون الى مجموعة الفونج[٣] التى انتشرت حتى دارفور ونيجيريا وساحل الذهب . وذهب سيلڤمان فى كتاباته الى المبالغة فى وصف الطريف من عادات النوبة وتقاليدهم إمعانا فى إبراز تقليديتهم وبدائيتهم. أمّا كتابات أليس (١٩٣٥) وكينيرك (١٩٤٨) فهى، بعكس كتابات سيلڤمان، اهتمّت بانتشار الاسلام فى مملكة تقلى والعلاقات التاريخية بينها وبين ملوك الفونج من جهة وبالحكم التركى والمهدية والحكم الثنائى الانجليزى - المصرى من جهة أخرى. وأقامت كتابات الكاتبة الألمانية لينى ريفنشتال (١٩٦٦- ١٩٧٦) الدنيا ولم تقعدها، خاصة عندما نشرت كتابها عن الكاونارو، وهم من سكان الجزء الجنوبى الشرقى من منطقة جبال النوبة وأتبعته بكتابها الثانى عن منطقة المساكين فى المنطقة الجنوبية الغربية من جبال النوبة . وقد تبع لينى ريفنشتال فى هذا المنزلق جيمس فارس فى كتابه من الفنون الشخصية عند النوبة (١٩٧٢) وهو الآخر عبارة عن مجموعة صور فوتوغرافية لا يختلف تفسير غير العارفين لموقفه الأيديولوجى لها عن تفسيرهم للصور الفوتوغرافية التى جمعتها لينى ريفنشتال. وقام جيمس فارس ،والذى يبدو من كتاباته أنّه يستخدم المنهج المادى التاريخى والنظريات البنائية للماركسيين الجدد، بمهاجمتها واصفا كتاباتها بأنّها تمجيد للقوّة الفاشية كانعكاس مباشر لكونها احدى سكرتيرات هتلر قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية . جذبت هذه الكتابات أعدادا وفيرة من السيّاح الألمان والأمريكيين الذين يأتون خصيصا لمنطقة جبال النوبة لرؤية ما صوّره

متغيرات التعاون الاجتماعى ـ الاقتصادى
عند النوبة ـ المورو

محمد عبد الرحيم محمد صالح

يعود عدم انتشار المعرفة الواسعة بما يدور فى مجتمعات جبال النوبة بجنوب كردفان وأنماط حيواتها الاجتماعية والاقتصادية الى عدّة أسباب منها أنّ معظم ما كتب عن النوبة قد تمّ نشره باللّغة الانجليزية.(١) ويعتبر كتاب النوبة لمؤلفه نادل (١٩٤٧) من المراجع الهامّة فى دراسة مجتمعات النوبة وقد اهتمّ فيه نادل بالتغيير الاجتماعى فى الثلاثينات ممّا يجعل معلوماته قاصرة عن تعريف القرّاء بواقع الحال فى جبال النوبة اليوم، أمّا كتاب استيفنسن(١٩٨٣) عن النوبة والذى أصدرته كلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم فهو عبارة عن رسالة تقدّم بها لنيل درجة الماجستير فى علم الاجتماع عام ١٩٦٥ وقد استخدم فيه أدوات بحث لا تمثل التيارات الحديثة فى علم الاجتماع،كما أنّ المعلومات نفسها تعتبر تاريخية لبعد الشقة بين مجتمعات النوبة المعاصرة ومجتمعاتها فى خلال الستينات. وكتب أوسوالد آيتن (١٩٧٩) عن الضغوط الاقتصادية على مجتمعات النوبة التقليدية وأثر الزراعة الآلية والنظم الادارية الحديثة واقتصاديات السوق عليها إلاّ أنّه حذا حذو الكاتبين السابقين وركّز على تقليدية مجتمعات النوبة وتنبّأ بالضغوط الاقتصادية التى سوف تواجهها وما يتبع ذلك من رفض للتغيير الاجتماعى. أمّا معظم ما تمّت كتابته بالعربية فقد ركّز على النواحى التاريخية كدور النوبة فى منطقة قدير وتقلى فى إيواء ومساندة المهدى (١٨٨٢) أو مقاومة النوبة للحكم الثنائى الانجليزى المصرى (١٨٩٨-١٩٥٦) ممثلة فى ثورات فكى على الميراوى فى الجبال الجنوبية والسلطان عجبنا فى الجبال الشمالية، بالاضافة الى تمرّد قبائل تولوشى وتيرا الأخضر على المفتشين الانجليز. هذه الدراسات على أهمّيتها لا تعطى صورة واقعية لما يدور فى مجتمعات النوبة المعاصرة ولا التغيير الاقتصادى والاجتماعى الذى تشهده منطقة جبال النوبة فى الآونة الأخيرة.(٢)

متغيرات التعاون الاجتماعى ـ الاقتصادى
عند النوبة ـ المورو

محمد عبد الرحيم محمد صالح

يعود عدم انتشار المعرفة الواسعة بما يدور فى مجتمعات جبال النوبة بجنوب كردفان وأنماط حيواتها الاجتماعية والاقتصادية الى عدّة أسباب منها أنّ معظم ما كتب عن النوبة قد تمّ نشره باللّغة الانجليزية.(١) ويعتبر كتاب النوبة لمؤلفه نادل (١٩٤٧) من المراجع الهامّة فى دراسة مجتمعات النوبة وقد اهتمّ فيه نادل بالتغيير الاجتماعى فى الثلاثينات ممّا يجعل معلوماته قاصرة عن تعريف القرّاء بواقع الحال فى جبال النوبة اليوم، أمّا كتاب استيفنسن(١٩٨٣) عن النوبة والذى أصدرته كلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم فهو عبارة عن رسالة تقدّم بها لنيل درجة الماجستير فى علم الاجتماع عام ١٩٦٥ وقد استخدم فيه أدوات بحث لا تمثل التيارات الحديثة فى علم الاجتماع،كما أنّ المعلومات نفسها تعتبر تاريخية لبعد الشقة بين مجتمعات النوبة المعاصرة ومجتمعاتها فى خلال الستينات. وكتب أوسوالد آيتن (١٩٧٩) عن الضغوط الاقتصادية على مجتمعات النوبة التقليدية وأثر الزراعة الآلية والنظم الادارية الحديثة واقتصاديات السوق عليها إلاّ أنّه حذا حذو الكاتبين السابقين وركّز على تقليدية مجتمعات النوبة وتنبّأ بالضغوط الاقتصادية التى سوف تواجهها وما يتبع ذلك من رفض للتغيير الاجتماعى. أمّا معظم ما تمّت كتابته بالعربية فقد ركّز على النواحى التاريخية كدور النوبة فى منطقة قدير وتقلى فى إيواء ومساندة المهدى (١٨٨٢) أو مقاومة النوبة للحكم الثنائى الانجليزى المصرى (١٨٩٨-١٩٥٦) ممثلة فى ثورات فكى على الميراوى فى الجبال الجنوبية والسلطان عجبنا فى الجبال الشمالية، بالاضافة الى تمرّد قبائل تولوشى وتيرا الأخضر على المفتشين الانجليز. هذه الدراسات على أهمّيتها لا تعطى صورة واقعية لما يدور فى مجتمعات النوبة المعاصرة ولا التغيير الاقتصادى والاجتماعى الذى تشهده منطقة جبال النوبة فى الآونة الأخيرة.(٢)

لهم هذان الكاتبان الأخيران.

وهناك ظنّ خاطئ بأنّ معظم سكان جبال النوبة وثنيون عنصريون مع أنّ الاسلام والمسيحية قد انتشرا فى جبال النوبة وأنّ حوالى ٧٥٪ من النوبة مسلمون. فالاسلام دخل مملكة تقلى فى جبال النوبة منذ القرن الخامس عشر الميلادى. كما أنّ كثيرا من قبائل النوبة المسلمة قد تزاوجت مع القبائل العربية التى نزحت الى منطقة جبال النوبة وخاصة فى مناطق تالودى وكادقلى والدلنج وتقلى. ويعود هذا الظنّ الخاطئ الى قلّة ما كتب عن جبال النوبة بالعربية والذى لا يتعدّى كتابات الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر عن انتشار الاسلام والمسيحية فى جبال النوبة. وكتابات السيد محمد هارون كافى عن الكجور فى منطقة جبال ميرى وكادقلى.

تهاجر الى العاصمة القومية بعض مجموعات النوبة ويحترف أفرادها أعمالا دنيا أو بخسة بدافع العوز والفقر الذى دفعهم للهجرة من مناطقهم بحثا عن لقمة العيش. ولمّا كانت مستويات التعليم بينهم متدنية كما أنّهم لا يجيدون التحدّث بالعربية وليس لهم من يساعدهم على الحصول على العمل الشريف فانّهم فى كثير من الأحيان يضطرون الى ولوج باب الاجرام كالسرقة وهذه قلّة لا يمكن أن تحسب على مجموعة عرقية بجملتها، كما فعل ذلك باحث فى مقالة عن(٤) بعض مظاهر الجريمة فى السودان.

يهدف هذا المقال الى عرض بعض النواحى الثقافية وأوجه التعاون الاجتماعى والاقتصادى عند المورو فى منطقة جبال النوبة وذلك لتعريف القرّاء بهذا المجتمع، الذى يقوم على تمجيد العمل ونفث روح التعاون فى كافة أوجه الحياة. فالنوبة فى مجتمعاتهم التقليدية يعتقدون فى قيم رفيعة لتنظيم الحياة بينهم وأقاربهم وجيرانهم كما أنّهم يفردون قدرا كبيرا من الاهتمام للنواحى السلوكية الايجابية.

يعتبر المورو من أكبر قبائل النوبة إذ يبلغ تعدادهم حوالى ٣٥ ألف نسمة. ويقع موطنهم فى المنطقة الوسطى بجبال النوبة بين خطى عرض ١٠-١١ درجة شمالا وخطى طول ٢٩-٣٠ درجة غربا فى مساحة تقدّر بحوالى ١٧٠٠ كلم مربع. يتبع المورو إداريا للمنطقة الجنوبية من

مديرية جنوب كردفان ولهم مجلس شعبى رئاسته فى أم دورين، التى تعرف بعاصمة المورو، وبها مجلسهم الريفى، ومركزهم الادارى وسوقهم الرئيسى.

يعتقد المورو بأنّ موطنهم الأصلى هو جبل اللّبو الواقع شمال عاصمتهم الحالية- أم دورين، وأنّ اسمهم القديم، حسب لغتهم المحلّية هو المورونج. وقد قامت قبائل البقارة، وبخاصة الحوازمة الذين سكنوا بينهم منذ القرن الثامن عشر، بنطق اسمهم بطريقة تختلف عن الاسم الأصلى حتى تمّ تحويله الى الاسم الحالى وهو المورو. ولابدّ من التنويه هنا الى أنّه لا توجد أيّة صلة عرقية مباشرة بين المورو، الذين يسكنون جبال النوبة والمورو فى شمال الاستوائية وجنوب أعالى النيل بالرغم من وجود بعض التشابه فى النواحى الثقافية.

ينقسم المورو الى مجموعتين هما ورى (wari) ولقيليان أوربى (Legilayin urbi) أو المورو الدنيا والمورو العليا فهما عبارة عن تصنيف لطبغرافية الأرض التى يعيشون عليها ولا يحملان أى اختلاف ثقافى أو لغوى بينهما.

تنقسم مجموعة ورى الى خمس مجموعات جبلية تسكن فى سلسلة الجبال الواقعة جنوب منطقة المورو وهى: كوروا ك، دورين، أبو ليلة، أنقريان ماعدا اللّبو الذين يسكنون فى المنطقة الشمالية ولكنّهم ينتمون الى مجموعة ورى.

أمّا مجموعة لقيليان أوربى فتنقسم الى خمس مجموعات وهى: نوا، كاين، أم جبر الله، كربج، وأندرى. ويلاحظ أثر القبائل العربية التى سكنت منطقة المورو فى أسماء المجموعات الجبلية الحديثة التكوين أبو ليلة، كوروا ك وأم جبر الله. وقد لاحظ نادل فى كتابه عن النوبة أنّ المورو لم يكن لهم اسم واحد يعرفون به كمجموعة جبلية واحدة ولكن كان لكلّ مجموعة جبلية اسمها الخاص الذى تعرف به ك: دورين واللّبو وانقربان .... الخ. حتى وحّد بينهم الحكم الثنائى وأطلق اسم مورو على كل المجموعات الجبلية التى تتحدث لغة المورو عند إدخال نظام الادارة الأهلية ١٩٢١. وبذلك نُصّب عليهم ادارىّ أهلىّ عرف بلقب مك وله سلطة موازية لسلطة العمدة فى القبائل العربية. وللمك محكمة يتم اختيار أعضائها من كل

المجموعات الجبلية وتقوم المحكمة بالفصل فى القضايا التى يكون أى من سكان المورو طرفا فيها بغض النظر عن القبيلة التى ينتمى اليها. لم يتأثر هذا النظام بالمتغيرات الادارية والسياسية المختلفة إذ آلت الى الملك رئاسة المحكمة الشعبية والتى بالتالى يتم انتخاب أعضائها من المجموعات الجبلية المختلفة إضافة الى عضو من الحوازمة الذين يسكنون معهم فى منطقتهم.

شهدت منطقة جبال النوبة تغييرات عديدة منها - كما ذكرت آنفا - دخول النظام الادارى الحديث بدءا بالادارة الأهلية ودخول الأحزاب السياسية، وبخاصة حزب الأمّة واتحاد عام جبال النوبة فى الآونة الأخيرة، ونهاية بالحكم الشعبى المحلّى وقيام مجالس القرى الريفية. ويمثل التعليم واحدا من أهم التغييرات التى حدثت فى المنطقة. ففى الدراسة الميدانية التى قمت بها عام ١٩٨٢ وجدت أنّ الذين يعرفون اللّغة العربية قراءة وكتابة يبلغون حوالى ١٨ر٢ بالمائة من السكان وهذه النسبة أعلى بقليل من المستوى القومى والذى لا يتعدّى الـ ١٥ بالمائة. وقد دخل التعليم منطقة المورو فى ١٩٣٢ عن طريق المبشرين المسيحيين وفى عام ١٩٤٧ حين أنشئت أوّل مدرسة أولية حكومية فى المنطقة. ويبلغ عدد المدارس الابتدائية فى مناطق المورو الآن حوالى ست مدارس للبنين والبنات ومدرسة ثانوية عامّة، بالاضافة الى عدد التلاميذ الذين يدرسون خارج منطقة المورو وأبناء الذين هاجروا الى المدن الكبرى كالعاصمة المثلّثة وبورتسودان وواد مدنى وكوستى ويبلغون حوالى ١٥ ألف نسمة. وهذا يدلّ على أنّ الهجرة من الريف الى المدينة تمثل عاملا هامّا من عوامل التغيير عند المورو ممّا يزيدهم التصاقا بالمجتمعات السودانية الأخرى التى يتفاعلون معها سلبا وإيجابا حسب مقتضيات الحال.

ومن أكبر العوامل المؤثرة على التغيير الاجتماعى فى الفترة منذ بداية العشرينات حتى الآن دخول القطن كمحصول نقدى فى عام ١٩٢٣ عندما أنشئت مؤسسة أقطان جبال النوبة، التى تحوّلت عام ١٩٦٧ الى مؤسسة جبال النوبة الزراعية، والتى قامت بإدخال نظام المشروعات الزراعية لصغار المزارعين وعددها حوالى ثلاثة وستين

مشروعاً. بعد زراعة القطن بدأت هجرات التجار من مناطق شمال ووسط البلاد (يعرفون بالجلّابة) وهم يقومون بالاتجار فى البضائع المستوردة وشراء المحصولات الزراعية من المواطنين. وقد أثر دخول اقتصاديات السوق على البنية الاجتماعية وساعد على زيادة ارتفاع معدّلات الهجرة من الريف الى المدينة وكذلك أنماط التعاون فى أوجه النشاط الاجتماعى والاقتصادى،كما سأوضح فى الجزء التالى من هذا المقال:-

أسس التعاون بين أفراد العشيرة :-

تنقسم كلّ مجموعة من مجموعات النوبة الى عدّة عشائر:مجموعة أنقربان التابعة للمورو الدنيا تنقسم الى عشر عشائر هى: أفرو المورنج،ماندا،نيجورو،نانقابرين، أندلوما،وأدرى،ميجان،جوزوندونق وقيليومان - وكلّها إمّا أسماء لنباتات أو حيوانات لها دور مؤثر فى حياتهم. فقيلويومان تعنى النمر ويرى أفراد هذه العشيرة أنّهم قد انحدروا منه وهذا استخدام أيدولوجى للتدليل على شجاعتهم وقوّة شكيمتهم ولكن يختلف المورو عن القبائل الأخرى فى أنّهم لا يحفظون تسلسل أجدادهم وليس لهم طقوس سنوية لشخص محدّد يعتقدون بأنّه مؤسس العشيرة ولكنّهم يذكرون الطواطم التى ينتمون اليها على النحو الذى ذكرنا آنفاً. ويلاحظ كذلك أنّ المورو لا يستخدمون أسماء عشائرهم فى حياتهم اليومية وذلك لأنّ العشائر نفسها متداخلة كما أنّ الزواج داخل العشيرة قد صار مقبولا ويشكّل متزايد فى الآونة الأخيرة ويعود ذلك للأسباب الآتية :-

أولا: بدأ المورو الهجرة من أعالى الجبال الى السهول الطينية التى حولهم بحثا عن أراض زراعية خصبة وذلك نتيجة لزيادة السكان زيادة مضطردة بعد استتباب الأمن وزيادة الضغط على الأراضى الزراعية المحدّدة فى المناطق الجبلية. فكانت الهجرة تأخذ أشكالا متعدّدة منذ إدخال القطن كمحصول نقدى عام ١٩٢٣م وقد بلغت أوجها فى الأربعينات والخمسينات عندما بدأت أسعاره فى ازدياد مضطرد. وذكر ديفيد رودن فى مقالين نشرهما فى المجلّة الجغرافية (١٩٦٩) ومجلّة السودان فى رسائل ومدونات (١٩٧٢) المراحل المتعدّدة لهجرات المورو من سفوح الجبال الى السهول وكذلك أنماط الزراعة الجديدة وأثرها على التنظيم الاجتماعى للعمل وهو ما سأتطرّق اليه بالتفصيل

من خلال المادة التى جمعتها إبّان قيامى بدراسة ميدانية عامى ١٩٨٠ و ١٩٨١م عن التنمية والتغيير الاجتماعى فى منطقة المورو

ثانيا: هاجرت عشائر متعدّدة وسكنت السهول وتزاوجت ممّا جعل الارتباط بالعشيرة الأم يتلاشى تدريجيا. وظهرت علاقات متداخلة بين العشائر حتى فقدت كثيرا من أهميتها فى الحياة اليومية. وصار التعاون بين المجموعات السكنية أكثر منه بين أفراد العشائر خاصة إذا علمنا أنّ عددا قليلا من الأفراد قد هاجر من بعض العشائر وكان عليه أن يتعاون مع العشائر الأخرى فى القيام بالعمليات الزراعية التى تتطلّب التعاون بين عدد كبير من الناس كحراثة الأرض، حصاد الذرة وجنى القطن وكذلك بناء المنازل ورعى الماشية وحمايتها من القبائل الأخرى.

والسبب الأخير هو الهجرة الى المدينة حيث تزاوج المورو مع عشائر مختلفة وبذلك تعدّدت وترابطت العلاقات بين العشائر. ومع الهجرة ازداد معدّل التعليم والتحضر وبدأ زواج الأقارب يأخذ مكانا مرموقا فى المجتمع ممّا أفقد العشيرة واحدا من أهم أدوارها وهو تنظيمها للزواج واصرارها على الزواج خارج العشيرة. وأكثر الزواج داخل العشيرة ابتدره المسلمون الذين بدأوا يتزوجون من بنات العم والخال على غير ما كان سائدا فى مجتمع المورو التقليدى. تبع انحسار دور العشيرة فى الحياة اليومية كذلك انحسار دورها فى التعاون بين أفرادها. وبذلك بدأت صلات القرابة والجيرة والزواج تأخذ دورا أكبرا فى حياتهم. وقد ساعد فى ذلك أنّ المورو أنفسهم ليس لهم لفظا محدّدا يقابل كلمة (عشيرة) فى اللّغة العربية أو (Clan) فى اللّغة الانجليزية فهم يستخدمون كلمة أوور awar ولها معان أوسع من كلمة (عشيرة) إذ أنّها تختلف باختلاف الحيّز الذى استخدمت فيه فهى، مثلا، تعنى الأقارب من ناحية الأب. وهى بذلك تستخدم للتفريق بين هذه المجموعة من الأقارب والذين يعتبرهم المورو أكثر قرابة، والأقارب الذين لهم صلة بعيدة وهم يعرفون بكلمة (أوربى urbi). وتستخدم كلمة (أوور) كذلك لتعنى الأقارب عن طريق الزواج (Affines) وبصفة خاصة الذين يسكنون معهم فى نفس القرية ويتعاونون معهم فى شتى أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية

أمّا علاقة الزواج التى لا تثمر عن سكنى أحد الزوجين مع أهل زوجها أو زوجه ولا يتعاون أهلهما فيما بينهم فهى علاقة مصاهرة تعرف عادة بـ (أونونغ onong).

وتطلق كلمة "أوور" كذلك على الحلفاء السياسيين الذين يتركون قراهم فى حالة ارتكاب أحدهم جريمة قتل ويسكنون تحت حماية احدى القرى خوفا من الثأر- ولمدّة طويلة من الزمن - فيتزاوجون ويتعاونون فى السرّاء والضرّاء. يتبنّى المورو مثل هؤلاء القوم ويطلقون عليهم لفظ "أوور" أى أنّهم قد قبلوهم كأفراد عشيرتهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. ويفرّق بين هذه المجموعة التى انضمّت الى العشيرة، وأفراد العشيرة عن طريق صلة الدم بعدم قبول المهاجرين فى مناصب القيادة السياسية كالشيخ والمك وكذلك عدم أحقيتهم فى التصرّف فى أراضى المورو الأصليين دون الاستئذان منهم. ولذلك نجد أنّ المورو لا يقولون أرض العشيرة أو (دودو أوور dudu awur) ولكنّهم يقولون أرض الجد أى (دودو أديتالو dudu editalo).

إنّ كلمة عشيرة عند المورو لها دلالتان هامتان: فهى تحمل معنى التفريق أو الفصل بين علاقة النسبة وهى ارتباط بين أفراد العشيرة عن طريق الدم، بالاضافة الى كونها محور هام للعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وكذلك العلاقة تكتسب أهميتها من ارتباطها بالحياة اليومية والاتصال المباشر واللّصيق فى المؤسسات الاجتماعية والتعاون فى إنجاز المهام الاقتصادية والسياسية التى تحتاج لمجموعات كبيرة من المشاركين حتى يتم انجازها. وبالرغم من أنّ مجتمع المورو يمجّد بعض سمات الأبوية وخاصة فى إرث الأرض والمناصب السياسية (من جد الى أب الى ابن) إلاّ أنّ العلاقة بين أفراد العشيرة لا تكتسب فعاليتها الاجتماعية من علاقة السلالة الأبوية وحدها - مع أهميتها- أو القرب أو البعد من مركز العشيرة ولكن كذلك عن طريق العلاقة بين الأقارب والجيران وهى الأهم فى الحياة اليومية وخاصة فى مجالات التعاون فى أوجه النشاط الاجتماعى والاقتصادى.

نخلص من هذا الى أنّ التغيير فى الاطار الاجتماعى على مستوى العشيرة قد صحبه انحسار لدورها التقليدى، الذى مهّد لاختفائه التدريجى ثلاثة عوامل رئيسية هى: دخول اقتصاديات السوق وتغيير

نمط الانتاج التقليدى الى انتاج متفاعل مع السوق المحلّى والعالمى عن طريق انتاج القطن وشراء البضائع المصنّعة والمستوردة من الخارج أولا،وهجرة المورو فى شكل مجموعات صغيرة من عدّة عشائر اختلطت فيما بينها وصار التعاون بينها يحتمه وجودها فى مناطق جديدة تحتاج لجهودهم المشتركة وتعاونهم الفعّال،ثانيا،وأخيرا الهجرة الى خارج منطقة المورو الى مدن السودان الأخرى وما صحب ذلك من احتكاك بمجموعات عرقية مختلفة وتعليم حديث وانتشار وعى.

بعض أنماط التعاون الاجتماعى ـ الاقتصادى:ـ

سأقتصر فى هذا الجزء على تحليل نوعين من علاقات التعاون الاجتماعى ـ الاقتصادى بين المورو يرتبطان ارتباطا كبيرا بالزراعة والرعى،وهما أهم سبل كسب العيش عندهم. وهاتان العلاقتان هما النفير والتعاون بين الشباب فى رعى الأبقار. ركّزت على هاتين العلاقتين ليس لأنّهما يمثلان كلّ علاقات التعاون أو لأنّه لا توجد علاقات أخرى لها نفس القدر من الأهمية ولكن لسهولة ربطهما بالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية أكثر من غيرهما وللدور الاقتصادى والاجتماعى الهام الذى تلعبه الزراعة والرعى فى حياة المورو. وكما نعلم فإنّه ليس من المبالغة فى شىء إذا قلت إنّ حياة المورو فى مجملها تقوم على التعاون الذى نلاحظه فى الزواج وعند دفع المهر والدية وعند تأهيل الصبية الى مرحلة الرجولة والقيام بالطقوس الدينية المختلفة ،وكل ذلك يتطلّب قدرا عاليا من التعاون والعمل الاجتماعى.

أولا: النفيـــــر:ـ

يسكن المورو فى قرى كبيرة تمتد لمسافات طويلة على سفوح الجبال وحتى السهول المحيطة بها. تنقسم القرى عادة الى مجموعات سكنية يفصل بينها حدود يعرفها الأهالى،وهى قد تكون عبارة عن جبل صغير أو شجرة كبيرة أو خور أو مزارع صغيرة. وتعرف كلّ مجموعة سكنية باسم خاص بها. وإذا أخذنا قرية أنقربان وهى جنوب مدينة أم دورين ـ عاصمة المورو ـ كمثال، نجد أنّ هذه القرية مقسّمة الى خمس مجموعات سكنية هى وانج ناج ـ أقرى ـ ألرى ـ أجوربو ـ والبجاجو. يطلق المورو لفظ (أرنو irenu) على القرية بكاملها

ويطلقون كلمة (نقارا ngara) على المجموعة السكنية الواحدة وبالرغم من أنّ الكلمتين تحملان نفس المعنى، وهو وحدة سكنية أو مجموعة من الناس الذين يسكنون فى منطقة واحدة، إلاّ أنّ كلمة (نقارا) ذات مغزى اجتماعى أعمق وتدلّ على أنّ هنالك صلة عميقة بين أفراد هذه القرية أو المجموعة السكنية داخلها. وتربط بين أفراد هذه الوحدات السكنية أنواع متعدّدة من العلاقات كعلاقة الزواج أو علاقة الدم والانتساب لجدّ واحد. تعتبر الأسرة والنفير من أهم مصادر العمالة فى منطقة المورو خاصة، وأنّ العمل بالأجر بين أفراد الوحدة السكنية الواحدة قليل جدا ما عدا العمل لصغار التجار.

يدعو المورو للنفير الإخوة وزوجاتهم وأبناءهم وبناتهم أولا إذا كانوا يسكنون معهم فى نفس المنطقة. وإذا لم يكن عدد هؤلاء كافيا فإنّهم يقومون بدعوة الجيران ويفضلون من تربطهم بهم علاقة زواج، ويلى ذلك من لا تربطهم بهم علاقة دم أو زواج ويسمّونهم فى هذه الحالة (ماجيقى Majigi) أى الإخوة عن طريق الصداقة والتعاون والسكن وهم يختلفون عن الإخوة عن طريق الدم والذين يسمّونهم (أورانج orang). فبين مذكراتى تحليل لمجموعة نفير من منطقة سكنية ،وجدت فى مجموعة النفير ثلاث أسر رئيسية ربطت بينها القرابة والزواج. وقد استعانت هذه المجموعة فى نفيرها بأعضاء من الأسر الممتدّة الأخرى وعددها سبع أسر لا تنحدر من جد واحد ولا تنتمى الى نفس العشيرة بل الى عدّة عشائر.

يقوم أفراد مثل هذه المجموعات السكنية بالتعاون فيما بينهم ويكوّنون مجموعة أو مجموعات نفير متعاونة فى بناء المنازل والقيام بشتى أوجه النشاط الاجتماعى والاقتصادى. ويكوّن الابن وحدة نفير منفصلة عندما يتم الزواج وتنشأ الأسرة. ويقوم الزوجان ببناء منزلهما الخاص بهما بمساعدة الأهل والأقارب ، وبذلك تتكوّن الأسرة وهى الوحدة الأساسية للانتاج والاستهلاك . يلاحظ أنّ الأسرة تبدأ دائما كعضو فى وحدة والد الزوج الانتاجية فيتعاون أفرادها معها فى القيام بالأعمال التى تتطلّب عددا كبيرا من الأيدى العاملة

ويستعين المورو فى العادة بالجيران وخاصة فى موسم الخريف لحراثة المزارع وفى الصيف عند بناء المنازل وحفر الآبار ونقل المحاصيل من المزارع الى القرى . فيكون هنالك عدد من الذين لا تربطهم صلة القرابة أو المصاهرة مشاركين فى النفير. وبذلك يمكن القول بأنّ النفير يقوم على الوحدات السكنية وليس على علاقات الدم أو العشيرة.

تقوم نساء المنطقة السكنية بمساعدة زوجة صاحب النفير فى تجهيز الطعام والشراب للمشاركين فى النفير كما يقوم عدد منهنّ بحمل الطعام ،وهو مكوّن من العصيدة وكميات معقولة من اللّحوم ،خاصة عند ذبح ثور أو ضأن أو ماعز لترغيب عدد كبير من الناس فى المشاركة . والمورو يعيرون من يفشل فى المشاركة فى نفير جاره أو أخيه باعتبار أنّ ذلك فعل بر اجتماعى . وعلى المتغيبين فى مثل هذه الحالات أن يوضحوا الأسباب الموضوعية التى أدّت الى تغيبهم وعدم مشاركتهم فى النفير،والذى يعتبر حدثا اجتماعيا هامّا، وفى بعض الأحيان يجد مثل هذا الشخص نفسه مضطرّا بتكليف زوجه تجهيز طعام تحمله للمشاركين فى النفير،ومن ناحية أخرى وفى حالة وجود عذر يبرّر عدم مشاركته بنفسه لتقوم زوجه فى هذه الحالة بالقيام بالحرث أو الحصاد مع بقية أهل المنطقة السكنية .

للنفير عند المورو ثلاث مزايا رئيسية :-

(١) إطعام المشاركين وإعطائهم المريسة ،وكلا الطعام والمريسة مصنوعان من الذرة الذى سبق إنتاجه عن طريق الأسرة ومجموعات النفير التى شاركتها فى إنتاجه . وكذلك صار المورو يقدّمون الشاى والقهوة للمشتركين فى النفير ممّا أضاف الى الأعباء المادية . وزاد ذلك من اعتمادهم على النقود والبضائع المستوردة عند إقامة النفير.(٥)

(٢) تحمل فكرة النفير المقولة القائلة بأنّه على سكان القرية أو المنطقة السكنية الواحدة مساعدة بعضهم البعض ممّا يساعد فى خلق مناخ اجتماعى معافى يقوم على محبّة الخير ومساعدة الغير والتعاون معهم . وبذلك لا يدفع أى نقد للمشاركين بل يطعمون من نفس مخزن الغلال الذى بنوه والذرة التى أنتجوها كأفراد أسرة يمثلون وحدة إنتاجية واستهلاكية واحدة تنتظم

مع الأسر الأخرى عن طريق التعاون فى وحدات اجتماعية و اقتصادية أكبر هى النفير.

(٣) يعطى النفير سكان الوحدة السكنية الواحدة و الجيران و الأقارب فرصة للتعبير عن انتمائهم لمجتمع واحد، كما يعطى فرصة للأسر الميسورة لتوزّع بعض ما جمعته من غذاء على أفراد المجتمع الآخرين. وهو بهذا يمثل عاملا من عوامل توزيع الثروة مع تشجيع العمل على الانتاج. ولذلك يستخدم المورو لفظين للتمييز بين المزارع النشط المثابر الذى يقيم النفير الكبير ويجمع عددا كبيرا من المزارعين لمساعدته ويقوم باطعامهم فيما بعد، فالمزارع المهتم بمزرعته يسمّى "قالارا galara " بينما يسمّى المزارع الكسول بـ " أنقالانقا Angalanga ". وهذا يدل على أنّ الانتاج الاقتصادى مرتبط ارتباطا كبيرا بالحياة الاجتماعية ويحدّد مكان الفرد فى السلّم الاجتماعى تبعا لذلك، ممّا يعنى أنّ العمل بنشاط ومثابرة يعتبر قيمة اجتماعية يمجدها المورو ويفردون لها مكانة رفيعة فى مجتمعهم.

هنالك نوع من النفير يقوم فيه الشباب من إحدى المناطق السكنية بمساعدة أب زوج أحدهم من منطقة سكنية أخرى فى حرث زراعته. ويعتبر هذا العمل الزراعى جزءا من المهر الذى يقدّمه الزوج لوالد الفتاة فى فترة الخطوبة فيقوم زوج الابنة بذبح ثور أو حيوان صغير ونقل الذرة من مخازن والده للاعداد لهذا النوع من النفير. وكذلك يقوم سكان منطقة الزوج السكنية وبمساعدة سكان منطقة أهل زوجه السكنية قبل الرحيل ببناء منزلهما الجديد. ويقوم العروسان كذلك بعمل وليمة كبيرة يدعى لها كل الأهل و الأقارب قبل أن تتم عملية ترحيل الزوجة الى منزل زوجها.

بالرغم من أنّ النفير عند المورو يحمل الكثير من مميزات العمل الجماعى عند القبائل الافريقية الأخرى وفى منطقة الكرمك، إلاّ أنّ النوبة و المورو بصفة خاصة يعطونه أهمية أكبر ويعتبرون كل فرد من أفراد المجموعة السكنية عضوا فى مجموعة نفير محدّدة يعطيها ولاءه السياسى من ناحية نصرتها و المشاركة فى أفراحها

وأتراحها مشاركة معنوية ومادية عن طريق المشاركة فى دفع الدية عند القتل والمهر عند الزواج وفى المناسبات الاجتماعية الأخرى. (٦)

ثانيا: الرعـــــى:-

يعتبر الرعى واحدا من أوجه النشاط التى يتعاون فيها الشباب من مختلف المناطق السكنية والقرى إذ يقومون برحلتين موسميتين الى المناطق الجنوبية على بعد حوالى ٦٠ كلم قريبا من الأودية فى فصل الصيف. ثم يرحلون شمالا الى المناطق الواقعة حول الجبال ومناطق تربة القوز الخفيفة بعيدا عن السهول الطينية، وذلك لأنّها مناطق تجمّع المياه الرّاكدة والمستنقعات، التى يتوالد فيها الناموس والذباب، الذى يضر بصحة الانسان والحيوان وثانيا لصعوبة حركة الأبقار فى مناطق التربة الطينية الثقيلة.

يقوم الشباب بالمشاركة فى النشاط الزراعى فى فصل الخريف وبذلك يساعد وجود الأبقار حول القرى واعتمادها على مياه الأمطار من التقليل من الجهد المبذول فى سقيها ومتابعتها لمسافات طويلة بحثا عن الكلأ كما هو الحال فى فصل الصيف.

ولمّا كان للمورو ملكيات صغيرة من الأبقار (تتراوح ما بين بقرتين الى أربعين بقرة للفرد) فانّ الشباب يقوم بتجميع أبقارهم فى وحدات كبيرة وبسقيها من الآبار عن طريق التعاون فيما بينهم. فمثلا يقوم عدد بحفر الآبار وبناء الأحواض التى تسقى منها الأبقار بينما تقوم البقية برعى الأبقار فى المراعى المجاورة. يترك الشباب القرى عادة فى فصل الصيف ويسكنون فى زرائب تبعد عشرات الكيلومترات من قراهم. وتسكن كلّ مجموعة من الشباب الذى ينتمى لقرية واحدة فى زرائب متقاربة حتى يتمكنوا من مساعدة بعضهم البعض وحماية أبقارهم. وهم عادة ما يجلسون سويا فى الأمسيات لتناول طعام العشاء أو لضرب النقارة أو الغناء بأغانى الفروسية.

وبالرغم من أهمية الأبقار فى الزواج ومواجهة صعوبات الحياة عن طريق بيعها والحصول على النقد لشراء بعض مستلزمات الحياة من مأكل أو مشرب، وبالرغم من ذبحها فى المناسبات الدينية والطقوس المتعلّقة بالولادة والموت، إلاّ أنّها لا تلعب دورا كبيرا فى مدّهم

باللّحم واللبن يوميا. ونلاحظ أنّ الأسرة تحصل على كميات قليلة من الألبان فى فصل الخريف ويعتبر المورو أنّ اللبن خاص بالشباب الذين يقومون برعى وسقى الحيوانات والمحافظة عليها.

وتكتسب الأبقار أهميتها من كونها ضمانا ضد الحاجة، وخاصة عندما تفشل الزراعة بسبب قلّة الأمطار أو الآفات الزراعية وأهم من ذلك لارتباط الحيوانات بدفع المهور فى شكل أبقار أو ضأن أو ماعز على حسب المكانة الاجتماعية للزوج وزوجه وتستخدم الحيوانات كرأسمال لسهولة بيعها للحصول على النقد لشراء لوازم الحياة..... والتمكن من القيام بمتطلبات النفير.

وبالمقارنة مع العمل فى الزراعة والنفير نلاحظ أنّ عددا قليلا جدا من أفراد الأسرة يكون منشغلا برعى الحيوانات وهو الشباب وتعتبر فترة الحياة فى الزرائب من أمتع سنى العمر التى ينعمون فيها بالحرية من تغوّل كبار السن والشيوخ. وكما أنّها فترة للتدريب على المشقة والاعتماد على النفس فى اتخاذ القرارات المتعلّقة برعى الأبقار والمحافظة عليها وحمايتها والتنقل بها من مكان لمكان من أجل نمائها وزيادة أعدادها.

ومع أنّ مجموعات النفير تتكوّن من سكان المنطقة السكنية الواحدة داخل القرية إلاّ أنّ مجموعة الرعى دائما ما تتكوّن من معظم شباب القرية بأكملها ولذلك نجد أنّ علاقات القرابة تتفاوت تبعا لوجود أو عدم وجود علاقة دم مباشرة، أو علاقة زواج بين الذين يتعاونون فى مجالات الرعى، وأهم ما يجمع بين الرعاة هو أنّهم يمثلون مجموعة عمرية من الذين لم يتزوجوا بعد، أو أنّهم قد تمّ تأهيلهم لمجموعة الشباب أبيدى (epidi) فى نفس العام، وهو تأهيل يحدث مرّة كل أربع سنوات ويقوم بتنظيمه والمشاركة فيه كل جبال المورو ويتم الاحتفال بهؤلاء الشباب فى منطقة جبل اللّبو الذى يعتقد المورو بأنّ أصلهم يعود اليه.

وتحتفل كل مجموعة رعوية سويا بأعياد الحصاد، التى يحملون فيها سياطا طويلة يلعبونها فى الهواء فتحدث أصواتا يسمع صداها عبر الجبال. وتسمّى طقوس الحصاد هذه أرماجا (armacha) أو سبر السوط ويُرى فيها الشباب من الجنسين فى أجمل حليهم وزينتهم التى

تتكوّن من الخرز والعاج الذى يلبسونه فى أيديهم وأعناقهم وفى أوساطهم. ويلاحظ كذلك أنّهم يسيرون فى مجموعات تمثل نفس المجموعات التى يتعاون أفرادها فى الرعى.

خلاصة :-

إنّ تغييرات عميقة قد حدثت فى الفترة بين الثلاثينات والأربعينات ثم تبعها تغيير اجتماعى مضطرد فى مناطق جبال النوبة عامّة وفى منطقة المورو على وجه الخصوص. ومن أهم هذه التغييرات أنّ المورو قد بدأوا الهجرة من سفوح الجبال الى السهول فى شكل جماعات وأفراد حرصت جميعها على التعاون فيما بينها وتكوين مجتمعات جديدة مؤسسة على التعاون بين أفراد القرى وتجمّعات للسكان أكبر، بغض النظر عن وجود أو عدم وجود علاقة الدم والتى، كما ذكرنا، ما تزال تلعب دورها فى حياتهم الاجتماعية. هذا التعاون بين أفراد التجمعات السكانية قد أدّى الى انحسار دور العشيرة الاجتماعى وبالتالى دورها فى النشاط والتعاون الاقتصادى فى مجالات الزراعة والرعى وقد ساعد على ذلك انتشار زراعة القطن وهيمنة اقتصاديات السوق.

ومن أهم التغييرات التى حدثت فى مجالات التعاون الاقتصادى والاجتماعى، وخاصة فى مجال النفير، هو أنّ هذا النوع من العمل الجماعى قد صار مرتبطا لدرجة ما بأسواق العمل المحلّية والبضائع المستوردة. فصغار التجار فى القرى المختلفة يعتمدون على عمّال الأجرة فى حرث وحصاد مزارعهم بينما يعتمد الأهالى على النفير فى إنجاز هذه الأعمال. وقد دخلت البضائع المستوردة فى شكل الزيت والبصل والشاى والسكر التى صار لزاما على صاحب النفير شراؤها. وصارت المبالغة فى الصرف على النفير مظهرا من مظاهر المكانة الاجتماعية. كما أنّ الحيوانات صارت تلعب دورا اقتصاديا هامّا فضلا عن دورها الاجتماعى التقليدى، بل وصارت سلعا تباع وتشترى بالنقد. وهذا لا يعنى أنّ المؤسسات الاجتماعية المرتبطة بالرعى، كالتعاون بين الرعاة فى البحث عن الكلأ وسقى الأبقار ومشاركتهم فى الطقوس الدينية المتعلّقة بطقوس الحصاد، قد اندثرت بل إنّها مازالت تستمد فعاليتها من قيمهم وتقاليدهم بالرغم من التغيير المعنوى البطىء

الذى بدأ يكتنف الحياة فى منطقة النوبة. ويلاحظ أنّ هذه العادات والتقاليد تظهر جنبا الى جنب مع الديانات الحديثة بالنسبة للنوبة كالاسلام والمسيحية. ويستحق ذلك حديث آخر.

الهوامش :-

(١) أشير هنا الى المراجع الآتية :-

R.J. Eles, " The Kingdom of Tegali," Sūdan Notes and Records, 8(1935); J.W.

Kenrick, " The Kingdom of Tegali, "Sudan Notes and Records 49(1948); S.F.

Nadel, The Nuba,(Oxford,1947); R.C. Stevenson, The Nuba people of Kordofan, (Khartoum, 1983); C.G. Seligman, The Pagan Tribles of the Nilotic Sudan (London, 1965);

J. Faris, The Nuba Personal Arts (London,1972); O. Iten, Economic Pressures on Traditional Society (Peter Lang,1979) and Leni Riefenstahl, The People and the Last of the Nuba; David Roden, " Down Migration in the Moro Hills of South Kordofan," Sudan Notes and Records. 35(1972)

(٢) راجع كتاب مكى شبيكة، السودان فى قرن (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،١٩٦٢) صفحات ٣٣٥،٣٣٦.

(٣) Seligman, Pagan Tribes, p.15.

(٤) لا يفوتنى أن أذكر أنّ الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر كان من أوّائل الباحثين السودانيين الذين اهتموا بدراسة منطقة جبال النوبة وبخاصة الجبال الشمالية وقد كان لكتاباته عن انتشار الاسلام والصراع بين المسيحية والاسلام أثر طيب فى تعريف القرّاء بالمنطقة. راجع على سبيل المثال كتابه: الادارة البريطانية والتبشير الاسلامى والمسيحى فى السودان: دراسة أولية، الخرطوم: الشئون الدينية والأوقاف، ١٩٧٩م. والكتاب يركّز بصفة رئيسية على منطقة جبال النوبة.

(٥) راجع مقال حاتم بابكر هلّاوى فى كتاب :
Socio-economic Change in the Sudan (ed.) Mohamed Hashim Awad (Khartoum 1983).

(٦) راجع مقال محمد عبد الرحيم محمد صالح:

" Local Markets in Moroland: The shifting Strategies of the Jellaba Merchants", in L. Manager (ed.) Trade and Traders in the Sudan (Bergen, 1984).

(٧) راجع مقال جواشيم زيجى ومحمد عبد الرحيم محمد صالح عن:

" Communal Labour and Rural Development in Africa South of the Sahara", International Journal of Agriculture, 32, 41, (1985).

وكذلك مقال عبد الغفار محمد احمد "النفير فى منطقة الكرمك " مجلّة الدراسات السودانية ٢/٤ (١٩٧٤)٠

وأيضا :-

L. Holy. Kinsman and Neighbours. The Berti People of Darfur, (London, 1974); F. Barth, " Economic Spheres in Darfur" in Firth (ed.) Themes in Economic Anthropology, (London, 1967).